



أثناء بقائي شهوراً في الأردن، ظللتُ أتلقّى على رقم هاتفي السوريّ رسائل نصّية من شركة سيرياتل التي استولى عليها آل مخلوف في سوريا الأسد. كانت إحداها الرسالة التالية، باسم تلفزيون سما: "ما هو اسم أم النبي محمد (ص): 1- آمنة بنت وهب 2- حلّيمة السعدية؟" أخذتُ السؤال على محمل الجدّ، فلم أجد فرقاً في الأمومة بين قداسة السيدتين الميتين. أعدتُ قراءة الرسالة المذيّلة بسعر المشاركة في المسابقة، وفتحْتُ التلفزيون في منزل سكنته وحدي أياماً، لأن مستأجرته سافرت بعد أن تركت لي المفتاح مدفوناً في تراب شجيرة ياسمين كان فوؤها يدلّني ليلاً إلى العنوان.

هناك، بعد انقطاع سنوات طويلة عن متابعة التلفزيون وبرامجه ومسلسلاته، رحّتُ أتقل بين القنوات، وحدي على الأريكة، متعباً مشتت الذهن في وحشة قلقة لم أعرف يوماً كيف أحتال عليها. لم تكن مشاهدة التلفزيون ترويحاً مناسباً، أثناء صلاة التراويح التي كنتُ أسمع مصليها يزحمون الزقاق القريب:

أتابع على القناة السورية الأولى برنامج جولة الكاميرا الصامتة في شوارع الشام، مصحوبة بموسيقى دلشاد سعيد، ثم أتقل إلى القناة الحكومية التالية المزدانة بشعار التلفزيون الأردني: تاج دوّار من ذهب في زاوية الشاشة حيث الدعايات أولاً. البنك الإسلامي ثم KFC ثم شركة زين للاتصالات، كأن بلد الفوسفات والسياحة يعيش داخل دعاية عملاقة تُعاد كل مرة مع تعديلات طفيفة أو تنويحات تقتضيها مصائب الجيران. هناك مسابقة تلفزيونية في منطقة قد تكون جبل عمّان، أو جبل الحسين. لا يتوقف المذيع عن الكلام، أجشّ الصوت سليطاً كواحد من أعوان شيوخ أو نواب مفوضين عن زعماء عشائر لا أعرف عنهم شيئاً واضحاً. المذيع نموذج الشاب العصري: الحيوية وفتوّة جسد بُنيت عضلاته جيداً، فضلاً عن الوسامة والأناقة المكلّلة بالبشاشة والكثير من المجاملات وطلاوة اللسان. أجدّ تهديداً في تلك الطلاقة وفضاطة في تلك الأريحية، وأحس بعنفٍ يبطنها يجعلني متحرّراً ومتأهباً للردّ حتى وأنا هنا مجرد متفجّر ساكت.

أفكر بحيوية المذيع ووجهه الأسمر غليظ القسّمات، وما يترأى لي فيها من تليفق وعدم رضى، مرارة وغضب مكتومين، وضبط انفجرات قد تنفجر في مواضع أخرى (لا أحد هنا يستبعد وقوع مثل تلك الانفجارات الرجولية)، واجترار أحقاد صغيرة لأن هناك من هو أعلى منه وأثرى وأوسع حظوة. سأبالغ أكثر. قد لا يستغرب الجمهور لو أشهر المذيع مسدّساً على المارة ليدايعهم لاهياً بتخويفهم، وهم يحوقلون ويستغفرون ربهم في شهر الخير، لكنه للسبب



نفسه يبدو ضحيةً عنفه وعنفيٍّ آخر عريق في المجتمع ضارب الأطناب (الأطناب هنا أنسب من الجذور).

بعد تكرار السؤال أكثر من عشر مرات، حول أقدم موقع روماني في العاصمة عمّان، وبعد فشل جميع الرجال في الإجابة، وأحدهم -بعد أن عزّف عن نفسه بالدكتور- ينال سخرية المذيع بأسلوب يُعتبر عادة خفّة دم أو تحبباً "بأيّ اختصاص؟"، وكأنه بالتهكّم وصم الدكتور أستاذ الأدب العربي بالخنوثة، ليأتي دهولٌ الأخير واحتجّاه بائسين، ويعقب الجواب الخاطيء مقطوعاً من "مدرسة المشاغبين" يُدرجه مخرج البرنامج على الهواء، وفي هذا المقطع المسجّل سعيد صالح تدمع عيناه من شدة الضحك فيمسح وجهه وعينه بمنديل؛ ربما ليست الثقافة للرجال الأفحاح أمثال المذيع، فقد يرونها شأن المعاقين والمساكين والمختئين. المذيع القوي، والمطيع لسادته في ذات الوقت وإن لم نرّه يهرع تنفيذاً لأوامرهم، في حاجةٍ، هو وزُعاة برنامجهِ، إلى هؤلاء الحيارى جهلة الأجوبة.

تفوز بجائزة المسابقة امرأةٌ محجبة في الأربعينات من عمرها، بإجابتها على السؤال نفسه أثناء اجتيازها وابنها الصغير شارعاً فقيراً. المذيع، الصياد جوّاب الشوارع المعتمة، حليق الوجه والرأس، متضاحكاً يأمرها بفتح الظرف لترفع الجائزة أمام الكاميرا: شيك قيمته 40 ديناراً، تقدمة من البنك الإسلامي.

\*

البدلات الرسمية، البرّاقة أو الفاخرة، وإن عبر الصور فحسب، تُسَمّم فيها أحياناً روائحٌ كريهة ليست بالضرورة عرقاً. روائح حبيسة تبتّها أجسادٌ تختنق. وزير الخارجية الأردني في جامعة الدول العربية يلقي كلمة تدين عدوان إسرائيل على غزة، سلسل صفات تفخيمية كثيرة قبل أن ينطق اسم الملك عبد الله المعظم، وبفصاحته التي تخللتها أخطاء في النحو والصرف برز في محفل الوزراء: الفحل المستجاب؛ المتلفّت حوله مراراً، ربما بحثاً عن توكيد أو تطمين، وشت نظرتَه بأنه يخاتل ويدّعي، بينما شعار القناة على دورانه في زاوية الشاشة، ذهبياً كالتيجان المرسومة على رؤوس الشيوخ في أوراق اللعب بين أيدي لاعبي البوكر. الملك القدوة، المؤمن، صورهِ معلّقة فوق رؤوس موظفي البنوك والسماصرة وتجار التوابيت في الوبيدة؛ الملك المثل في الزيّ الرياضي، ذو البدن المرصوص، المحتذى سواء في الزي الرسمي أو في الزي التقليدي لأجداده الهاشميين. كل المزايا التي تجعله، على ما يفترض الواهمون، محطّ أنظار النساء أولاً، نور العالم الذي يستقطب الفراشات. أنافته، ومثيلتها لدى الوزراء والمذيعين وأبطال الدعايات،



شبيهة بأناقة الحراس الشخصيين. رجال أشداء "مهيون" متواطئون فيما بينهم على هذا الشكل من الأناقة التي أخطأ بشيء من الحذر كلما صادفتها أو واجهتها.

\*

الحفل انتهى. ينصرف العازف فيرجعه الجمهور بالتصفيق من الكواليس. يعود ليأخذ باقات الزهور وينحني (أو تغطي عازفة البيانو ثدييها الناصعين حين تنحني في فستانها الأسود مفعمة بالرضى)، ثم يعود مرة أخرى والمصفقون واقفون هذه المرة، وبالحاحهم يرتجل لحناً يكون على الأرجح معدّاً من قبل والفرقة قد تمرّنت عليه. المتنبئون في القاعة متعددة الطبقات، والمتفرجون بالمناظير على أصابع العازفين فوق مفاتيح البيانو وأوتار الكمنجات، ربما ينتشون بتحقيق نبوءتهم في عودة العازف إلى المنصة لا بما سمعوه، فمثل هذه الحفلات مناسبة دائماً لتداعيات لا تنتهي، وقد يكتب المنزرون ما يجول في أذهانهم على برنامج الحفل. هل التصفيق انتقام أم امتنان؟ من بدأ أو من اخترع هذا النهج في السعادة والتكريم؟ كيف صار صفع الهواء بين الأكف شكلاً من الثواب والمكافأة؟ أليس انتهاكاً هذا الهتاف الأصمّ بالأيدي، بعد ساعتين من لذات الصمت والشroud وأحلام اليقظة؟

جالساً وحده أمام التلفزيون، يستمع الموسيقي العاطل عن العمل إلى هذه الحكاية ترددها القرون داخل رأسه: الحفاوة دليل على الأهمية. يقشعرّ بدنه، قشعريرة حقيقية في تلك الوحدة الشاسعة، كأنه معني حقاً بهذا الهدف الذي يُنعت بالجليل، أي الوصول إلى الجمهور العريض، كأنه المؤلف الخفي وليس العازف البادي للعيان. يفكر: من هم هؤلاء الحاضرون؟ جمهور الموسيقى الكلاسيكية كجمهور التنس، غامضون، أثرياء. ربما أحب اللطخة البيضاء في غرّة مارتا أرغريتس، الشبيهة بسوزان سونتاغ. هل رجولتهما تستهوي المراهقين؟ أم أنه جمالهما بما فيه من فصاحة ملامح؟ أم هي متلازمة واردنبرغ التي تذكّر بعيون القطط السيامية، حيث لكل قزحية لونٌ والغرّة مُنارةٌ ببقعة من الشيب والأذنان موقورتان لا تسمعان أحداً؟ أهذا ما يريده الوحيدون أيضاً؟ الشهرة؟ أهذا هو الطموح، رامياً إلى تكرار صفحة أخرى في كتاب حزين؟ يقول في سرّه: "ستصلُّ الزائرة بعد دقائق، وإذا أخبرتها بأني أحببتُ لحناً دون سواه، ثم أسمعها التسجيل المرئي المقصود، فقد تراني في موضع العازف الذي يتلقى التصفيق، برهاناً على ما يسمّى النجاح، تراني في موضعه تنهال عليّ المدائح، غريباً في مستقبل نفسي. هذا الافتراض يثيني عن مشاركة الفكرة مع أحد، فأبقي لنفسي ما أحسستُ به وسوف أنساه بعد قليل".



المتفّجّ وحده في رمضان

الكاتب: جولان حاجي